

أبتاه ماذا قد يخطُ بناني ***** والحبلُ والجلادُ ينتظرانِ
هذا الكتابُ إليك من زنانيةٍ ***** مقرورةٍ صخريةٍ الجدرانِ
لم تبقَ إلا ليلةٌ أحيا بها ***** وأحسُ أن ظلامها أكفاني
ستمرُّ يا أبتاه - لست أشك في ***** هذا - وتحمل بعدها جثمانِي

* * * *

الليل من حولي هدوءٌ قاتلٌ ***** والذكرياتُ تمورُ في وجداني
ويهدني ألمي فأنشدُ راحتِي ***** في بضع آياتٍ من القرآنِ
والنفسُ بين جوانحي شفاقةً ***** دبَّ الخشوعُ بها فهز كياني
قد عشتُ أو منُ بالآلهِ ولم أذقُ ***** إلا أخيراً لذةَ الإيمانِ
شكراً لهم أنا لا أريدُ طعامهم ***** فليرفعوه فليستُ بالجوعانِ
هذا الطعامُ المرُّ ما صنعتُه لي ***** أُمي , ولا وضعوه فوقَ خُوانِ
كلا ولم يشهده يا أبتِي معي ***** إخوانٍ لي جاءه يستبقانِ
مدوا إليَّ به يداً مصبوغةً ***** بدمي , وهذي غاية الإحسانِ
والصمتُ يقطعهُ رنينُ سلاسلٍ ***** عبثتُ بهنَ أصابعِ السجانِ
ما بين آونةٍ تمرُّ وأختها ***** يرنو إليَّ بمقلتي شيطانِ
من كوةٍ بالبابِ يرقبُ صيدهُ ***** ويعودُ في أمنٍ إلى الدورانِ
أنا لا أحسُ بأي حقدٍ نحوهُ ***** ماذا جنى ؟ فتمسه أضغاني
هو طيبُ الأخلاقِ مثلكَ يا أباي ***** لم يبدُ في ظمأٍ إلى العدوانِ
لكنه إن نامَ عني لحظةً ***** ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمانِ
فلربما وهو المروعُ سحنةً ***** لو كان مثلي شاعراً لرتاني
أو عادَ - من يدري ؟ - إلى أولاده ***** يوماً وذُكرَ صورتِي لبكاني

وعلى الجدارِ الصلبِ نافذةٌ بها ***** معنى الحياةِ غليظةُ القضبانِ
قد طالما شارفتها متأملاً ***** في الثائرينَ على الأسى اليقضانِ
فأرى وجوماً كالضبابِ مُصَوِّراً ***** ما في قلوبِ الناسِ من غُليانِ
نفسُ الشعورِ لدى الجميعِ وان همُ ***** كتموا , وكان الموتُ في إعلاني
ويدورُ همسٌ في الجوانحِ ما الذي ***** بالثورة الحمقاءِ قد أغراني
أو لم يكن خيراً لنفسي أن أرى ***** مثلَ الجميعِ أسيرٌ في إذعانِ
ما ضروني لو قد سكتُ , وكلما ***** غلبَ الأسى بالغتُ في الكتمانِ
هذا دمي سيسيلُ يجري مُطفئاً ***** ما ثارَ في جنبيَ من نيرانِ
وفؤاديَ الموارُ في نبضاتِهِ ***** سيكفُ في غده عن الخفقانِ
والظلمُ باقٍ , لن يحطمَ قيدهُ ***** موتي , ولن يودي به قرباني
ويسيرُ ركبُ البغي ليس يُضِيرُهُ ***** شاةٌ إذا اجْتُثَّتْ من القطعانِ
هذا حديثُ النفسِ حين تشفُ عن ***** بشريتي وتمورُ بعد ثواني
وتقول لي : إن الحياةَ لغايةٌ ***** أسمى من التصفيقِ للطغيانِ
أنفاسُكَ الحرى وإن هي أخدمتُ ***** ستظلُ تغمرُ أفقهم بدخانِ
وقروحُ جسمكَ وهو تحتَ سياطِهِم ***** قسماً صُبحَ يتقيه الجاني
دمعُ السجينِ هناكَ في أغلالهِ ***** ودمُ الشهيدِ هنا سيلتقيانِ
حتى إذا ما أفعمت بهما الرُّبا ***** لم يبقَ غيرَ تمرُدِ الفيضانِ
ومن العواصفِ ما يكونُ هبوبُها ***** بعدَ الهدوءِ وراحةِ الربانِ
إن احتدامَ النارِ في جوفِ الشرى ***** أمرٌ يثيرُ حفيظةَ البركانِ
وتتابعُ القطراتِ ينزلُ بعده ***** سيلٌ يليه تدفقُ الطوفانِ
فيموجُ يقتلع الطغاةَ مزجراً ***** أقوى من الجبروتِ والسلطانِ

أنا لست أدري هل ستذكر قصتي ***** أم سوف يعرفها دجى النسيان
أو إنني ساكون في تاريخنا ***** كأس المذلة ليس في إمكاني
لو لم اكن في دعوتي متطلباً ***** غير الضياء لأمتي لكفاني
أهوى الحياة كريمة لا قيد , لا إرهاب , لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتي ***** يغلي دم الأحرار في شرياني

* * * *

أبتاه إن طلع الصباح على الدنى ***** وأضاء نور الشمس كل مكان
واستقبل العصفور بين غصونه ***** يوماً جديداً مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثرةً ***** تجري على فم بائع الألبان
وأتى يدق - كما تعود - بابنا ***** سيدق باب السجن جلادان
وأكون بعد هنيهة متأرجحاً ***** في الجبل مشدوداً إلى العيدان
ليكن عزائك أن هذا الجبل ما ***** صنعته في هذي الربوع يدان
نسجوه في بلد يشع حضارةً ***** وتضاء منه مشاعل العرفان
أو هكذا زعموا , وجئ به إلى ***** بلدي الجريح على يد الأعوان
أنا لا أريدك أن تعيش محطماً ***** في زحمة الآلام والأشجان
إن ابنك المصفود في أغلاله ***** قد سيق نحو الموت غير مدان
فأذكر حكايات بأيام الصبا ***** قد قُلتها لي عن هوى الأوطان
وإذا سمعت نشيج أُمي في الدجى ***** تبكي شاباً ضاع في الريعان
وتكتم الحشرات في أعماقها ***** ألماً تواريه عن الجيران
فاطلب إليها الصفح عني , إنني ***** لا ابتغي منها سوى الغفران
مازال في سمعي رنين حديثها ***** ومقالها في رحمة وحنان

أُبْنِي : إني قد غدوتُ عليلَةً ***** لم يبقَ لي جلدٌ على الأُحزانِ
فأذق فؤادي فرحةً بالبحثِ عن ***** بِنْتِ الحلالِ ودَعَكَ من عصياني
كانت لها أُمْنِيَةٌ ريانَةً ***** يا حُسْنَ آمالٍ لها وأمانِي
غَزَلْتُ خيوطَ السعدِ مخضلاً ولم ***** يكن انتقاضُ الغزلِ في الحسبانِ
والآنَ لا أدري بأيِ جوانحِ ***** ستبیتُ بعدي أم بأيِ جَنانِ
هذا الذي سطرتهُ لك يا أباي ***** بعض الذي يجري بفكرٍ عانِ
لكن إذا انتصرَ الضياءُ ومُرِقَتْ ***** بيدِ الجموعِ شريعةُ القُرْصانِ
فلسوف يذكُرني ويكْبِرُ همتي ***** من كانَ في بلدي حليفَ هوانِ
وإلى لقاءٍ تحتَ ظلِ عدالةٍ ***** قدسيةِ الأحكامِ والميزانِ

شعر/

كاتب المقالة : هاشم الرفاعي رحمه الله
تاريخ النشر : 29/03/2014
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com